استقصاء مفهوم «الشَّباب» في الثَّقافات الإفريقيَّة

د. آدم بمبا

أكاديمي وباحث من كوت ديفوار، أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة مالايا، ماليزيا

إنَّ ما يُصطلح عليه في العربيَّة بكلمة «شباب»، أو بالإنجليزيَّة «youth»، أو في غيرهما من اللُّغات، يمثِّل مصطلحاً نسبيّاً متنازعاً حول مفهومه وحدوده، ذلك أنَّ مفهوم الشَّباب يتعدَّد ويتبايَنُ بتعدُّد الثَّقافات واختلافها، وتنوُّع المجالات العلميَّة والفكريَّة؛ من علم نفس، وفلسفة، وتاريخ، واجتماع... كما يتعدَّد بفعل الزَّمن والظُّروف المتقلِّبة.

وقد حدَّدت هيئة الأمم المتَّحدة مرحلة الشَّباب بما بين: (١٥ - ٢٤) عاماً، وهي عند منظمة الكمنولث: (١٥ - ٢٩)، وفي الاتِّحاد الإفريقيِّ والميثاق الإفريقيِّ للشَّباب: (١٥ - ٣٥)، ولكلِّ دولةٍ بإفريقيا- تقريباً- تحديداتها الخاصَّة للفترة الزَّمنية لسنِّ الشَّباب، كما أنَّ لبعض الهيئات السِّياسيَّة أو المنظَّمات الأهليَّة المختلفة تحديداتها الخاصَّة بها حتى داخل الدَّولة الواحدة[١].

يُضاف إلى ذلك: أنَّ اعتراف الدَّولة بالحقوق المدنيَّة للفرد؛ يتمُّ في معظم الدُّول بعد بلوغه سِنِّ الحادية والعشرين[٢].

وفي الجدول الآتي بيانٌ بالأعمار المحدَّدة للشَّباب في عدَّة دُوَل إفريقيَّة:

الدَّولة	العمر والمدى الزَّمني
سيراليون، غانا، غينيا، ليبيريا	١٥ - ٣٥ (٢٠ عاماً)
مالي	١٥ - ٤٠ (٢٥ عاماً)
النيجر	١٤ - ٣٠ (٢٦ عاماً)
نيجيريا	١٨ - ٣٥ (١٧ عاماً)

فترة الشَّباب في بعض الدُّول الإفريقيَّة، المصدر: (Ismail et al. ٢٠٠٦: ٢٥)[٣].

يتبيَّن مما سبق، وفي الجدول أعلاه، أنَّ تحديد تعريف دقيق للشَّباب لا يزال يمثِّل تحدِّياً قائماً للدُّول الإفريقيَّة، وذلك في ظلِّ الواقع الاجتماعيِّ الاقتصاديِّ والسِّياسيِّ الذي تتمُّ فيه محاولة وضع وصف للشَّباب، ولعلَّ ذلك ما انتهى بالدُّول الإفريقيَّة إلى اعتماد «المحدِّد الزَّمنيِّ» معياراً لمفهوم الشَّباب، غير أنَّ هذا المحدِّد ليس ثابتاً بين الدُّول، ولا يخفى أنَّ اعتماد «المحدِّد الزَّمني» (السِّن) له تبعاتٌ عميقةٌ في حياة الملايين من الأفراد؛ لعلاقته المباشرة باتِّخاذ القرارات حول مفاهيم وممارساتٍ ومشاريع كثيرة في الدَّولة الحديثة، مثل: حقوق المواطنة، والانتخاب، وحيازة الأملاك، وفترة التَّعليم الإلزامي، والخدمة العسكريَّة، والمسؤوليَّة الجنائيَّة، والتَّوظيف في القطاع العامِّ، والإحالة على التَّقاعد.

والملاحظ في هذا السِّياق: أنَّ الدُّول الإفريقيَّة، وإنْ تبنَّت سِنَّ «الخامسة عشرة» بدايةً لفترة الشَّباب، فإنَّها قد وسَّعت المدى إلى الثَّلاثين أو ما فوقها، ويرجع هذا التَّوسُّع إلى مشكلات البطالة في الدُّول الإفريقيَّة، وطول اعتماد الشَّباب على والديهم ماديّاً[٤]، ويقوِّي هذا التَّفسير تدنِّي المدى المحدَّد لفترة الشَّباب في الدُّول الصِّناعيَّة، ففي أمريكا مثلاً: (١٢ - ٢٤) عاماً، أمَّا في اليابان فإنَّه: (١٥ - ٢٠) عاماً.

وحتَّى نمسك العصا من وسطها في هذه القضيَّة؛ ينبغي أن يُنظر في الاستخدام اللُّغويِّ، فالظَّاهر أنَّ الإشكال الأوَّل في مفهوم «الشَّباب» ناشئٌ عن ضبابيَّة المفردات المستخدمة في هذا المجال الدِّلالي، فهناك مفرداتٌ عدَّة متقاربة في اللُّغات الأوروبيَّة تُستَخدَمُ في هذا السِّياق، مثل: teenagers, youth, young person, adolewcent,

(١) Odianose, Dominic. Practical Perspectives on Youth, p.3.

(٢) Paul, Ugor L. African Youth Cultures in a Globalize World, 2015.

(٣) Matha, Mutisi. "Interrogating Traditional Youth Theory", p.94.

(٤) Mwenda, Ntarangwi. Children and Youth in Africa.

juvenile...، وينشـأ الغموض حيـن تترادف هذه المفردات في الاسـتعمال، وتتمُّ ترجمتها إلى اللُّغات الأخرى بالرُّغم من اختلاف المدارك.

فكلمة «adolescent» (مراهق) مثلاً، المأخوذة من الأصل اللاَّتينـي (adolescentia)، ومن الفعل (adolesco)، وتعنـي: النَّمـاء[١]، يذهب مجموعةٌ من الباحثيـن، منهم الباحـث الأنثروبولوجي آريسّ (Aries)، إلى التَّشـكيك في أصالتهـا، وفي وجود مفهوم «مراهقة» فـي أوروبا القديمة[٢]، وحجَّتهم أنَّ لفظـة «مراهق» مُسـتحدثة، فرضتها ظروف عصر الصِّناعة، والتَّعليم، والحيـاة الحضَريَّة، وغيرها من الظُّروف التي تسـبَّبت في توسـيع الفجوة بين فترة الطُّفولة والرُّشد[٣].

عليه؛ فإنَّ الإشـكال يتعمَّق حين يتمُّ إسقاط تلك المصطلحـات المتنـازع حولها على وقائـع وبيئات اجتماعيَّة مختلفة، وذلك ما أشار إليه الباحث «أغْيا» في مَعرِض مناقشـته لمفهوم مماثـل هو «الطُّفولة»، حيث قال إنَّ «كلَّ محاولة لعولمة مفهوم الطِّفل لا يؤدِّي إلى سوء الفَهْم لطبيعة الطُّفولة فحسب، وإنَّما تُعرِّضُ هذا المفهوم للمحاولات المغرضة والاسـتخدامات النَّفعيَّـة»[٤]، أو كما يوضِّحه الباحث «سـميث»، فإنَّ محاولـة تعريف مرحلة الشَّـباب أو الرُّشـد تفضي بالضَّرورة إلى رؤية تجزيئيَّة لظاهرةٍ مركَّبة، فالشَّاب أو الرَّاشد هو شخصٌ مركَّبٌ من خصائص بيولوجيَّة، ونفسيَّة، واجتماعيَّة[٥].

هذا، ومن أجل استجلاء مفهوم «الشَّباب» بإفريقيا في سياقه الصَّحيح؛ فسيتمُّ الوقوف عنده في خمسة محاور رئيسـة، هي: الاعتبار العمري، ونظام الفئات العمريَّة، والرُّؤى الفلسفيَّة المؤثِّرة في مفهوم الشَّباب، والموروث الشَّعبي الإفريقي، والمؤثِّرات الحديثة في مفهوم «الشَّباب».

١ - مفهوم «الشَّباب» والاعتبار الزَّمني / العُمْري:

يعود أصل التَّصنيـف الاجتماعيِّ طبقاً للأعمار إلى عصرٍ سـحيق من الاجتماع البشـريِّ بإفريقيا، وتفيد الدِّراسـاتُ الأنثروبولوجيَّة أنَّ هذا النِّظام قد ظهـر أوَّلَ ما ظهر بيـن قدماء المصريِّيـن، وأنَّ له ارتباطاً عضويّاً بالنِّظام التَّربويِّ التَّعليميِّ في المجتمع القديم، ويُعتقـد أنَّ هذا النِّظام الـذي ظهر بمصر القديمة قد انتشـر منها إلى سائر أرجاء العالم، وأثَّر في النِّظام التَّربـويِّ الاجتماعيِّ عند الإغريق، وبلاد الرَّافدَين، وسـائر ثقافات الشَّرق الآسيَوي من هنود وصينيِّين.. وغيرهم[٦].

عليه؛ لا يخفى أنَّ مفهوم «الصِّغر والكبَر» مفهومٌ صارمٌ في معظـم ثقافات إفريقيـا، وأنَّ له ارتباطاً مباشـراً بكثيرٍ من الأنظمة والأعـراف الاجتماعيَّة، فهو موجودٌ على سـبيل المثال بين الإخوة الأشقاء، وبيـن الزَّوجات (الضَّرات)، ويتـمُّ الاعتماد عليه في اسـتخلاف الوالـد أو عميد الأسـرة أو الملك بعد وفاته، إنَّ جميع هـذه الأنظمة الاجتماعيَّة تقوم على الأولويَّة في الولادة، وحتَّى بين التَّوأمَيْن، فإنَّ بينهما: أكبـر وأصغر، وفي هذه الحالة الخاصَّة يُتّبع التَّرتيب العكسـي، فيعدُّ الأوَّل خروجاً الأصغر[٧]، ويفسَّر هذا

(١) W. Hyde. The Etymological Encyclopaedia of Technical Words, p.11.

(٢) Deborah, Durham. Youth and the Social, p.116.

(٣) Andrew, Burton, Helen., Generations Past: Youth in East African History, p.237.

(٤) Agya, Boakye-Boaten. “Changes in the concept of Childhood”, p.105.

(٥) Fredrick Nafukho. Foundation of Adult Education in Africa, p.6.

(٦) Tradition, Culture and Development in African History, p.60-61.

(٧) قد يُعتقد أنَّ هذا النظام مأخوذ من الكتاب المقدس في قصة نبي الله يعقوب عليه السَّلام (المزامير / إصحاح ١١٦: ٩)، والواقع أنَّ هذا النِّظام معمولٌ به في كثيرٍ من المجتمعات المنعزلة نسبيًّا قبل احتكاكها بالمسيحيَّة.

التَّرتيب العكسي بعلاقة الرِّعاية بين الكبير والصَّغير؛ حيث يُعتقد أنَّ الأخيـــر خروجاً قد دفع بأخيه/أخته إلى الحياة، ولم يتركه خلفه.

هذا، وعلى الرُّغم من صرامـــة حقِّ الأولويَّة في الـــولادة في الثَّقافات الإفريقيَّـــة؛ فإنَّ ذلك يكون في حال مقارنة الفرد بغيره حين يســـتَلْزِمُ الموقِفُ ذلك، وما عداه، فإنَّ ســـنَّ الفرد لا اعتبار كبيراً له بوصفه فـــرداً، وإنَّما يكتســـب اعتباره ضمـــن مجموعةٍ من الأفراد، وذلك ما يُعرف بـ«الفئة العُمْريَّة».

٢ – نظام الفئات العمريَّة:

في المجتمعات الإفريقيَّـــة؛ يتمُّ تصنيف الأفراد إلى مجموعاتٍ عمريَّـــة متدرِّجة، ويتمُّ انضمام الفرد إلى المجموعة العمريَّة الخاصَّة به، أو انتقاله من فئة عمريَّة إلى أخرى، عبر طقوسٍ تأهيليَّة محدَّدة rites de passage.

هنا يفرِّق الباحثون بين مصطلح «الفئة العمريَّة» (age set)، وبين «المراتب العمريَّة» (age grades)، فالأوَّل: يُشـــار به إلى الأفراد الذيـــن وُلدوا في فترةٍ متقاربة (١ – ٤ سنوات)، يمكن وضعهُمْ في مجموعةٍ واحدة[١]، بينما الآخر: يُشارُ به إلى المراحل العمريَّة الثَّابتـــة التي يمـــرُّ عبرها الفرد فـــي المجتمع، ولها مواصفاتها الجسديَّة والنَّفسيَّة والأخلاقيَّة، وواجباتُها وحقوقهـــا المحـــدَّدة عند كلِّ مجتمـــع[٢]، ونجد في المجتمعات الإفريقيَّـــة– عامَّة– ثلاث مراتب عمريَّة: (الطُّفولة، والشَّباب، والكبَر أو الشَّيخوخة).

في هذا السِّياق؛ فإنَّ تقسيم الحياة البشريَّة إلى مراتب عمريَّة نظامٌ أكثر دقَّة وصرامة في المجتمعات الرَّعويَّة منها في المجتمعات الزِّراعيَّة، على ســـبيل المثـــال: نجد عنـــد مجموعات نانـــدي (Nandi)،

المجتمعات الإفريقيَّة القديمة تستقي رؤيتها عن مرحلة «الشَّباب» من خلال فلسفتها الخاصَّة ورؤيتها عن الكون والإنسان والحياة

وكذلـــك مجموعات تريكـــي (Tiriki)– في كينيا–: نظاماً سُـــباعيّاً في هذا المجال؛ أي أنَّ حياة الإنسان مقسَّـــمة على سبع مراحل، تتكوَّن كلُّ مرحلةٍ منها من خمس عشرة سنة (١٥xV)، وتعدُّ المرحلة الثَّالثة في هذا التَّقســـيم: مرحلة الشَّباب، ويُطلق على أفرادها: «محاربون صغار»، وإليهم تعـــود مهمَّة الحفاظ على «الأمـــن العامِّ» في المجموعة؛ من حمايةٍ للمواشـــي، ودفاعٍ عن الأراضي.

أمَّـــا المرحلة الرَّابعة فيُطلـــق عليها: «محاربون كبار»، ومهمَّتها الأولى نقل خبراتها الحربيَّة والإداريَّة إلـــى الفئـــة الثَّالثة، كما تقـــوم بوظيفة «الوســـاطة والسِّـــفارة» بين المجموعة الثَّالثـــة، ومن فوقها من المجموعات من كبار السِّـــن. وهـــذا النِّظام الدَّقيق واردٌ عند مجموعات رعَويَّة أخرى، مثل: الماســـائي، وسامبورو[٣].

أمَّـــا مجموعات «بـــورانْ»– مـــن الأورومو جنوبيَّ إثيوبيـــا–: فتُعـــرَف عندها عشـــر مراتـــب «غادا» (gada)، كلُّ مرتبةٍ بثماني ســـنواتٍ، أولاها: «دبالي» (daballe)، أي: طفولـــة، وآخرهـــا: (yuba) الشَّيخوخة. ولهذا التَّقســـيم تأثيرٌ دقيقٌ في التَّنظيم السِّياســـيِّ والاجتماعـــيِّ عند بـــورانْ، يُعـــرَف في

(١) Toyin, Falola. Facts, Fiction and African Creative, p.130.

(٢) Alan, Bernard. Encyclopedia of Social and Cultural Anthropology, p.21.

(٣) William, a. Haviland, Cultural Anthropology, p.264.

البحوث الاجتماعيَّة بـ«the Boran version of governance by committees»، وصَفَهُ الباحث برنارد بـ«أكثر النَّماذج تعقيداً في إفريقيا»[١].

وكما سبق؛ فإنَّ المجموعات الزِّراعيَّة أقلُّ تعقيداً في التَّصنيف الاجتماعيِّ، كما الحال عند مجموعات (Karimojong) في الشَّمال الشَّرقيِّ من يوغندا؛ حيث يُصنَّفُ المجتمع إلى فئتَيْن كبيرتَيْن فحسب، هما: الرَّاشدون وغير الرَّاشدين. ومثل ذلك عند «النوير» جنوبي السُّودان. أمَّا مجموعات «أروشا» في شمال تنزانيا؛ فيتمُّ تقسيم الرَّاشدين تقسيماً داخليّاً إلى فئتَين: الصِّغار والكبار.

الخصائص الاجتماعيَّة في هذا النِّظام:

في ظلِّ نظام الفئات العمريَّة هذا؛ يمكن النَّظر بوضوح في مفهوم «الشَّباب» في المجتمعات الإفريقيَّة، وذلك باستعراض بعض الخصائص الاجتماعيَّة في هذا النِّظام، وأثره في تشكيل الرُّؤية الإفريقيَّة عن مرحلة الشَّباب، منها: التَّأهيليَّة، والتَّضامنيَّة، والوظيفيَّة.

أ - التَّأهيليَّة: يعني ذلك أنَّ الانتقال لمرحلة الشَّباب، أو غيرها، تصاحبه طقوسٌ روحيَّةٌ وماديَّة محدَّدة (rites of passage)، وهذا يقوِّي نظر الفرد إلى المرحلة العمريَّة التي انتقل إليها؛ ما دام دخوله إليها قد تمَّ عبر طقوسٍ روحيَّة، وتمَّ إعداده لها نفسيّاً وعمليّاً بمهاراتٍ محدَّدة.

وتحديداً؛ فإنَّ مرحلة «الشَّباب» تبدأ بالختان، ولا يزال ذلك يُعدُّ لازمةً اجتماعيَّة ضروريَّة في معظم مجتمعات إفريقيا جنوب الصَّحراء؛ حتى يُعترف بالفرد بأنَّه «راشد»، ويُسمح له بممارسة بعض الطُّقوس والوظائف والعادات الاجتماعيَّة. وليس الختان- في حدِّ ذاته- الأمر المهمَّ في هذا المقام، وإنَّما الأهمُّ ما يمرُّ به الفرد من تربيةٍ اجتماعيَّة ثقافيَّة مكثَّفة: في التَّاريخ القوميِّ، والعادات والتَّقاليد، وتربية خُلقيَّة، واختباراتٍ عضليَّة في التَّحمُّل والصَّبر[٢].

ب - التَّضامنيَّة: تُعدُّ طقوس التَّأهيل للشَّباب عاملاً لتقوية الوعي بالتَّضامن بين أفراد الفئة العمريَّة الواحدة؛ فتغدو المجموعة جسماً واحداً، تعمل وتتصرَّف باعتبارها كتلة واحدة. وفي المجموعات الأكثر وثنيَّة: يتمُّ استحلاف أفراد المجموعة على النُّصرة فيما بينهم، وعلى الالتزام بأخلاقٍ وأعرافٍ محدَّدة لا يمكن انتهاكها بأيِّ حال، وتقوى الرَّابطة التَّضامنيَّة بينهم حتى تتجاوز الرَّابطة الأسريَّة وعلاقات الدَّم والقرابة[٣].

ج - الوظيفيَّة والتَّكامليَّة: يوضِّح التَّقسيم العمريُّ بجلاء مهامَّ كلِّ فئةٍ عمريَّة في المجتمع، ويُسهِّل تسيير نظام الحكم بالمجتمع التَّقليديِّ، ويؤمِّن توزيعاً عادلاً للسُّلطات، وشفافيَّةً عاليةً النِّسبة في اتِّخاذ القرارات السِّياسيَّة التي تهمُّ المجتمع. وكما أوضحت الباحثة بينيت (Bennett، ١٩٩٨): فإنَّ كلَّ فئة عمريَّة ضروريَّة في الهيكلة الاجتماعيَّة؛ لأنَّ مهامها وامتيازاتها فريدة بالنِّسبة للفئات الأخرى، ويتمُّ دعم مهامِّ كلِّ فئةٍ وواجباتها وحقوقها عبر وضع حزمةٍ من القيم والتَّصرُّفات والحدود الخاصَّة بها.

بالإجمال؛ إنَّ الخصائص المذكورة لنظام الفئات العمريَّة، تجعل من مرحلة الشَّباب، ومن الفرد، عنصراً مندمجاً بقوَّةٍ وبعمق في النَّسيج الاجتماعيِّ، ولا يُعرف في ظلِّ هذا النِّظام أيُّ انفصام أو صراعٍ بين «الشَّباب» وبين أيِّ عنصرٍ في المجتمع.

٣ - القيَم والاعتبارات المؤثِّرة في مفهوم «الشَّباب»:

يقوم المجتمع الإفريقيُّ، مثل غيره، على ركائز فلسفيَّة تشكِّلُ رؤيته في الكون والحياة والإنسان، وتؤثِّر بقوَّةٍ في نظرة المجتمع إلى المؤسَّسة

(١) Alan, Bernard. Encyclopedia, Op. Cit., p.22.

(٢) Isaac, Schapera. Picturing a Colonial Past, p.131.

(٣) Olugbenga, Adesida. African Voices, p.10.

الاجتماعيَّـــة أو غيرها، وهنا اســـتعراضٌ لبعض تلك الرَّكائز الفلسفيَّة التي تؤثِّر في مفهوم الشَّباب، مثل: الجماعيَّـــة، والإنتاجيَّة، والمســـؤوليَّة، والانضباطيَّة، وكلُّ هذه الرَّكائز تميِّز مفهوم الشَّـــباب بإفريقيا عنه في المفهوم الغربيِّ.

أ - الجماعيَّة: يُشـــار إلى مبـــدأ الجماعيَّة في الفلســـفة الإفريقيَّـــة بـــ«ubuntu»، ويُترجَم إلى (communalism)، ويشـــير إلى: أنَّ الفرد تتحدَّد هويَّته بانتمائه إلى مجموعة، ويبدأ هذا الانتماء بعلاقةٍ وثيقةٍ داخل الأسرة الموسَّـــعة، فالعشيرة، فالمجتمع الواســـع. ومن مظاهر هذا الانتماء: أنَّ اسم المولود في بعض المجتمعات الإفريقيَّة يُحدَّد بناءً على ترتيبه في الأســـرة، والفرد في هذا النِّظام هو ملك الجميع، ووجوده متوقِّفٌ على وجود الآخرين وانتمائه إليهم في شبكة علاقاتٍ متداخلة في المجتمع.

ويُعبَّـــر عن هـــذه الفلســـفة بالتَّعبير الشَّـــهير: «umuntu ngumuntu ngambantu» أي: «أنا موجودٌ؛ لأنَّنا موجودون»[١]، عليه؛ فإنَّ الفرد قبل أن يصل إلى مرحلة «الشَّـــباب»؛ فإنَّ مبدأ الجماعيَّة يكون قد ربَّاه على أنَّـــه مِلْكٌ للجميع، وأنَّ تربيته هي شـــغل الجميع، وفي المثَل عنـــد مجموعات بانْيورو: omwana takulia nju emoi : أي: «لا يشُّـــب الطِّفـــل تحت كوخٍ واحـــد»، وعند مجموعـــة كيهايا (Kihaya): omwana taba womoi : «ليـــس الطِّفل مِلْكاً لدارٍ واحدة»[٢].

في ظلِّ هذه الفلســـفة؛ فإنَّ مفهوم «الشَّـــباب» بإفريقيـــا التَّقليديَّة يتحـــدَّد أيضاً بمـــدى انخراط الفـــرد في مجموعتـــه وفي فئته العمريَّـــة؛ من أجل الوفـــاء بالمتطلَّبـــات الاجتماعيَّة المنوطـــة بمَنْ بلغ هذه المرحلة، ويبلغ هذا الانخراط مداه، على ســـبيل المثال، في مجتمع «زولو»؛ حيث لا يُحاسَبُ الفردُ إذا قام بانتهاك محظورٍ اجتماعيٍّ، وإنَّما تُحاسَـــبُ الفئة العمريَّة التي ينتمي إليها؛ فيتحمَّل الجميع المسؤوليَّة والعقاب.

هـــذا، ولا يخفـــى أنَّ هـــذه الرُّؤية الفلســـفيَّة الاجتماعيَّة على عكـــس الرُّؤية الغربيَّـــة التي تولي الاهتمام بالفرد فرداً: بمصالحه الفرديَّة، وباستقلاله عـــن غيره، حتـــى إنَّ كثيراً من تعريفات «الشَّـــباب» تُصرِّح بهـــذه الرُّؤية، وترى أنَّ مرحلة الشَّـــباب هي مرحلة الاســـتقلال الشَّامل: جسديّاً، وفكريّاً، وعقليّاً، واقتصاديّاً[٣].

ب - الإنتاجيَّـــة: لمرحلة الشَّـــباب في المفهوم التَّقليـــديِّ علاقةٌ واضحة بالإنتـــاج، أي أنَّ الفرد لا يخرج مـــن الاعتبـــار الطُّفوليِّ حتى يُحســـن القيام بوظائـــف اجتماعيَّـــة معيَّنـــة، وذلك ضمـــن الإطار الاجتماعـــيِّ والتَّوزيـــع الدَّاخليِّ للمِهَـــن والوظائف والحِرَف والأعمال الخاصَّـــة بالمجموعة التي ينتمي إليهـــا، وبالتَّعبير الحديث: أن يقوم بـــأداء «الخدمة العسكريَّة / الاجتماعيَّة».

ويتوسَّـــع هذا المعيار إلى مطالبة الفرد بالقيام بأعمـــالٍ بطوليَّـــة تثبت فُتُوَّتـــه وأحقيَّتـــه بوصف «شـــاب»، على ســـبيل المثال: في مجتمع «ماسايْ» الرَّعويِّ: يُطالَب الفرد بمبارزة أســـد وقتله، وحينئذٍ يُعتـــرف برجولته[٤]، وعند «الفولانـــي» مبارزة قتاليَّة تُعرف برقصـــة: (soro/sawro/sharo)[٥]، وفي المجتمعات الزِّراعيَّة تتلخَّص تلك المهام العضليَّة في بناء البيوت، والصَّيد، وفلاحة الأراضي، وحفر الآبار، ومـــا إلى ذلك من الخدمات التي تؤمِّن البنية التَّحتيَّة

(١) Derek, Hook. Critical Philosophy, p.76.

(٢) Richard, S. Gilbert. Growing up Absorbed, ch: 14.

(٣) Deon, Filmer. Youth Employment in Sub-Sahran Africa, p.49.

(٤) R. A. Brown. The Tree or the Panzaic Plea, p.401.

(٥) Zartman, I. Traditional cures for Modern Conflicts, p.62.

الاجتماعيَّة[١]، أمَّا الرُّعاة: فتكون أدوار الشَّباب في: رعي المواشي، وحماية المجموعة، وكلَّما تقدَّم الفرد في السِّن؛ فإنَّ المهام تغدو أكثر اجتماعيّاً وسياسيّاً.

ج - المسؤوليَّة: من الفروق بين الرُّؤية الإفريقيَّة عن الشَّباب وبين الرُّؤية الغربيَّة لهذه المرحلة: أنَّ الغرب يراها مرحلةً انفصاميَّةً بين الماضي والحاضر، حسيّاً ومعنويّاً، أي أنَّها مرحلة صراع، ويُطلقون على ذلك: (puberty-conflict)؛ أيْ: مرحلة تمرُّد على القِيَم وأعراف المجتمع، ويُعرف بـ«youth culture» (ثقافة الشَّباب)[٢]، بالعكس؛ فإنَّ الثَّقافة الإفريقيَّة تنظر إلى هذه المرحلة نظرةً إيجابيَّة بوصفها مرحلة مهمَّات اجتماعيَّة، وتطوُّراً في مسؤوليَّة الفرد نحو المجتمع، وتوسيعاً لأوجُهِ مشاركته وفاعليَّته في الشَّأن العامِّ، واكتساباً لخبراتٍ جديدة، وتعمُّقاً في الثَّقافة التَّقليديَّة.

من الأمثلة هنا: ما نجده في الثَّقافة الهوسَاويَّة؛ حيث إنَّ من محدِّدات الرُّشد عند «هوسا»: أن يكون الفرد مسؤولاً عن غيره، كافلاً لآخرين: من زوج أو إخوة صغار أو أبناء... ويُطلق على مَن تقدَّم في السِّن ولم يتزوَّج لأيِّ سببٍ من الأسباب، وليس هو مسؤولاً عن غيره، قائماً بشؤونهم، يُطلق عليه: (tsoho)، وتعني حرفيّاً: «قديم»، أي أنَّها كلمة لا تحمل ظلالاً اجتماعيَّة، وإنَّما ماديَّة بحتة، يُشار بها إلى السِّن البيولوجيِّ فحسب[٣].

د - الانضباطيَّة الخلقيَّة: يُعدُّ التَّصرُّف اللَّبق بحسب الأعراف والقيَم الخلقيَّة في المجتمع معياراً أساسيّاً في تحديد الشَّباب، وبتعبير الباحث ماك ني «McNee»؛ فإنَّ المجتمعات الإفريقيَّة التَّقليديَّة لا تستخدم العمر محدِّداً لتمييز الأطفال من الرَّاشدين.. «بل إنَّ الحالة والوظيفة الاجتماعيَّة هي التي تحدِّدُ السِّن»، وهذه الحالة الاجتماعيَّة يكتسبها الفرد عبر المرور بمتواليةٍ من المهامِّ والواجبات والطُّقوس الاجتماعيَّة، لذلك، فإنَّ الفرد إذا تجاوز الفترة البيولوجيَّة النِّسبيَّة للرُّشد، ولم يخضع لطقوس التَّأهيل، كالختان ومصاحباته، فإنَّه لا يعدُّ راشداً، ولا يعترف له المجتمع بحقوقٍ اجتماعيَّة معيَّنة، ولا يخوِّله القيام بوظائف محدَّدة مما هو من اختصاص الرَّاشدين[٤].

هذا، وتحتفظ كلُّ لغةٍ بألفاظ سلبيَّة للإشارة إلى غير المختون، وهي ألفاظٌ وتعبيراتٌ عميقة في الدِّلالة على السِّباب والازدراء بالشَّخص، منها: (bilakoro) عند مادينغ، و (kivisi) عند أكامبا، و (munyolo) عند ليو (Luo)، ويعني ذلك كلُّه أنَّ الشَّخص غير راشدٍ، وأنَّه لم يتلقَّ التَّربية الكافية، والتَّهذيب الصَّحيح.

في هذا السِّياق؛ يشير «الهوسا» إلى الشَّباب في العشرينيَّات والثَّلاثينيَّات بـ«يارا»، ومقابله: «داتيجو، ج. داتيجاي» (dattijo, pl:dattjai)، لمن جاوزوا الأربعينيَّات، وهو مفهومٌ بيولوجيٌّ واجتماعي في الوقت نفسه، فقد يوصف الفرد الشَّاب بوصف «داتيجو» إذا اتَّصف برجاحة العقل والتَّصرُّف الاجتماعي والأخلاقي اللَّبق، والعكس بالعكس. كما يُطلق «يارا» على ذوي المرتبة الاجتماعيَّة الدُّنيا كالعبيد؛ وإنْ كان كبيراً بيولوجيّاً.

بالمثل؛ فإنَّ «الفولاني» تربط السِّن برجاحة العقل والرُّشد، فيؤكِّدون أنَّ المسنَّ ليس من عاش طويلاً، ولكنَّه من يَعرف كثيراً. وبتعبير المؤرِّخ الأنثروبولوجيِّ أحمد هامْباتهْ باهْ: «فقد يُعدُّ الفرد مسنّاً وهو في العشرين من عُمره، أو حدَثاً وهو في

(١) Olugbenga, African voices, Op. Cit.

(٢) Ulrich, Oberdiek. Anthropological Abstracts, p. 70.

(٣) Murray, Last. Toward a Political History, p.40.

(٤) McNee, L., "The languages of childhood", African Studies Quarterly, 7 (4): 20-32.

سـنِّ الثَّانية والسَّـبعين»[١]، كما يشيرون إلى الشَّاب بـ(sukanaaku)، وهو لفظٌ يحمل ظـلالاً قِيَميَّة إسلاميَّة مكمِّلة لمفهوم الإنسان المثاليِّ (Pulaaku) عند «الفولاني».

٤ - الموروث الشَّعبيُّ ومفهوم «الشَّباب»:

يُعـدُّ الموروث الشَّـعبي بإفريقيـا، أو بغيرها، المصـدر الأوَّليّ لفَهْـم المجتمـع وحضارته، وفي موضوع «الشـباب» خاصّـةً نجد مادَّةً واسـعةً من المفـردات اللُّغويَّـة، والحكم والأمثـال، والقصص والأسـاطير، والأغاني... التي تعطينا رؤيةً صحيحةً عن هذا المفهوم.

وتكفي الإشارة هنا إلى بعض تلك الجوانب:

أ - حِكَـمٌ وأمثـال: هنـاك أمثالٌ كثيـرة تأتي توضيحاً للكثير مما سـبق الإشـارة إليه من مفاهيم حول «الشَّباب»، فمن الأمثال في الدِّلالة على العلاقة الحميميَّة بين الشَّـباب وكبار السِّـن، مَثَلٌ لمجموعة (Builsa): «ba kan kali dai yenga nak peesa a sue yui ya»[٢]؛ أي: «ليس بالجلوس يوماً واحداً يتعلَّم الإنسان كيف يملأ جعبةً بالبقول الحلوة، لا بدَّ من التَّعليم المتواصل، ومصاحبة كبار السِّن».

مَثَلٌ آخر في حثِّ الشَّـباب على التَّعلّم: «الشَّاب الذي لا يسـتمع إلى كبار السِّـن يسـير طويلاً»[٣]؛ أي: لا يصـلُ بسـهولةٍ إلى الهدف. قريـبٌ منه قول مجموعة أكانْ: «opayin tiri muna wohuani akuma»[٤]؛ أي: «من رأس المسـنِّ تؤخذ الفأس»؛ أي أنَّ من يسـتنير بالحكماء يحصل على الوسـيلة المناسبة للمشكلة، ويقولون أيضاً: «nea apanyin tena ase a oho no, abofra gyina gua so koraa ohu»[٥]؛ أي: «إنَّ ما يراه المسـنُّ وهو قاعد على الأرض؛ لا يراه الحدَثُ وهو فوق شجرة».

وعـن الإدماج الحقيقيِّ للشَّـباب فـي الحياة تقول مجموعـة بوغنـدا: «miti gyamayuuni, basimba bayegekere, bwe gikula negyezimba»[٦]، ومعناه: «البقول الشَّـابة تحتاج إلى دعامة، وليسـت المسنَّة». ويقولون في الاعتراف بالمقدرة الإنتاجيَّة للشَّاب: «keezimbira tekaba kato»[٧]، ومعناه: «لم يعـدْ طفلاً الطِّفلُ الذي يبني لنفسـه كوخاً». وعند «مادينغ» في ضرورة إشـراك الشَّـباب في اتِّخـاذ القـرارات: «dugu jɛ tɛ tɛmɛ dugu la ko a ka dɔgɔ»؛ أي: «لا يتجاوز الإصباحُ بلدةً لصغرها».

ب - قصص وأسـاطير: فـي كثيرٍ من القصص والأسـاطير الإفريقيَّة، نجد الصِّغار الذين يتميَّزون بخصائص عقليَّـة أو خُلُقيَّة عاليـة يُعاملون معاملة الرَّاشدين، ويحظون بالحقوق التي يحظى بها الكبار، وربَّما كان ذلك معياراً للتَّفاضُل، خصوصاً في ظروف اسـتخلاف الأبناء لوالدهم الملك، حيث يُتجاوز عن حـقِّ الأولويَّة في الولادة، وذلك حـال البطل القوميِّ «صونجاتا» بين المادينغ، و «كاكاما» (الملك الصَّغير، موكاما = ملك) الجد الأسطوريِّ لمجموعات بانْيورو (Bunyoro)، وذلك بعد تفوُّقه على إخوته الكبار في اختباراتٍ في الذَّكاء وقوَّة الشَّخصيَّة[٨].

من أمثلة الأسـاطير أيضاً في دَوْر الشَّـباب في

(١) Hampate B. “Ahmadou Hampate ba Education et Traditions”, fondation AFRIKHEPRI, 2013.

(٢) Walter, J. Moon. Using Proverbs to Contextualize Christianity, p.16.

(٣) Dorothy, Proverbs and the African tree of life, p. 97, footnote 21.

(٤) Jane, Apiah. Akan Proberbs As Indigenous Knowledge, p.53.

(٥) Jadie, Mcdonnell. RE-Theorizing the Integral Link between Culture and Development, p.48.

(٦) Khalid, Lubega., Understanding Social in Buganda, 109.

(٧) Ibid., p. 74.

(٨) John, Beattie. Bunyoro: An African Kingdom, p.11-12.

تحقيق الوئام الاجتماعيِّ: ما يُعرف عند مجموعة خويِّ خويّ (KhoiKhoi) بجنوب إفريقيا، بـ«إله المطر»، واسمه (Tsui'Goab)، ويزعمون أنَّه هو الشَّاب الذي صارع ملك الموت (Gaunab)، ودافع عن القرية حين أتى الملَكُ في فترة جفافٍ حادَّة لقبض مجموعة من الأرواح[١].

كذلك؛ في مجتمع «دينكا» الرَّعويَّ بالسُّودان قصَّة الفتى (Aiwel Longar)، ويُعتقد أنَّه جدُّ مجموعات بورّ (Bor) من الدِّينكا، وتُضفى عليه قوَّة خارقةٌ، ونجاحه في حماية الشَّعب من جفاف هالك[٢].

فالفنون الشَّعبيَّة، بأشكالها المتعدِّدة، أداةٌ دقيقةٌ في الكشف عن الرُّؤية الإفريقيَّة لمفهوم «الشَّباب» أو غيره من الظَّواهر الاجتماعيَّة.

هذا، وعلى الرُّغم من أهميَّة كلِّ ما سبق ذكرُهُ من ركائز واعتباراتٍ في الثَّقافة الإفريقيَّة التَّقليديَّة؛ فلا سبيل إلى إنكار المؤثِّرات الحديثة المسؤولة عن التَّغير المفهوميِّ لمرحلة «الشَّباب»، ولا بدَّ من الأخذ بتلك الظَّواهر؛ إذا ما أريد الخروج بمفهوم حقيقيٍّ عن «الشَّباب» منسجمٍ مع الظَّرف التَّاريخيِّ الرَّاهن.

٥ - المؤثِّرات الحديثة في مفهوم «الشَّباب» بإفريقيا:

هناك ظواهر وعوامل كثيرة قد رشَّحت لإحداث تغيير في مفهوم «الشَّباب» الأصيل بإفريقيا، منها: سياسيَّة، واجتماعيَّة، واقتصاديَّة، وثقافيَّة، ولعلّ الاكتفاء هنا بعامل الثَّقافة والاستعمار، والتَّعليم الغربيِّ، والعولمة؛ يُدلِّل على هذا التَّأثير.

أ - الاستعمار والثَّقافة الغربيَّة: لقد مثَّل الاستعمار منعطفاً حادّاً في الحياة الإفريقيَّة؛ حيث تمَّ الزَّجُّ بأنظمة الحياة الغربيَّة في المجتمع الإفريقيِّ دون اعتبارٍ لملاءمة ذلك لتلك، وقد كان التَّعليم الغربيُّ أحد تلك الأنظمة المنافرة للحياة الإفريقيَّة، ولهذا التَّنافر آثارٌ واضحةٌ في الشَّباب الإفريقيِّ المعاصر، منها الانفصام عن الواقع، والبطالة، وتأخير الزَّواج... ولكلِّ ذلك آثارٌ مباشرةٌ في تغيير الرُّؤية عن الشَّباب.

ب - الأديان والمعتقدات الوافدة: للأديان الوافدة بإفريقيا علاقةٌ مباشرةٌ بالتَّغييرات الطَّارئة في مفهوم «الشَّباب»، سواء كانت إيجابيَّة أو سلبيَّة، وقد أدت المسيحيَّةُ هنا دَوْراً سلبيّاً في إحداث الانفصام والقطيعة بين الفرد الإفريقيِّ وبين معتقداته وقِيَمه وموروثه، وكانت تلك سياسةً مُكمِّلةً للمشروع الإمبريالي. وإذا كان الإسلامُ- بعقيدته وقِيَمه- قد ساهم بإيجابيَّة في هذا المجال؛ فإنَّنا نجد دعاةً، من العرب والأفارقة أنفسهم، ممَّن تضيق نفوسُهُم بِسَعَة الإسلام، قد ساهموا بسلبيَّةٍ كبيرةٍ في تحطيم القِيَم الإنسانيَّة النَّبيلة بإفريقيا؛ حيث رمَوا كلَّ مظهرٍ ثقافيٍّ بالضَّلال والوثنيَّة دون أن يُجهدوا أنفسَهُم بالنَّظر فيه ودراسته.

ج - الحروب الأهليَّة والأمراض: للحروب الأهليَّة آثارٌ مباشرةٌ في التغيير الجذريِّ لمفهوم «الشَّباب»، فظاهرة الأطفال المجنَّدين (Children Soldiers) مثلاً، قد غيَّرت ديموغرافيَّة الحياة ومفهوم «الشَّباب»، وتفيد الإحصاءات أنَّ: (٢٠٠,٠٠٠) من أطفال إفريقيا، حتى عام ٢٠١٤م، مجنَّدون، ويمثِّل ذلك نسبة (٥٧,١٤٪) من المجموع العالميِّ (٣٥٠,٠٠٠)[٣]، ونسبة كبيرةٌ من أولئك تحت سنِّ العاشرة[٤].

أمَّا الأمراض والأوبئة؛ فهي نتيجة طبيعيَّة للحروب الأهليَّة، ويأتي على رأسها «مرض الإيدز» الذي يمثِّلُ مقوِّضاً للكثير من قواعد البناء

(١) Patricia Ann, L., African Mythology A to Z, p.48.

(٢) Patricia Ann. Op. Cit., p.5.

(٣) African Policies and Economics Development, p.11.

(٤) Momvana, Children soldiers in Africa, p.17.

الاجتماعـــيِّ بإفريقيـــا، وأوَّل مظاهر هذا التَّقويض لمرحلة الشَّـــباب: هَلْهَلة الأسرة، وذلك بموت الآباء في فترةٍ مبكِّرة من حيـــاة الطِّفل، فلا يصل الطِّفلُ إلى مرحلة الشَّـــباب الافتراضيَّة وصولاً طبيعيّاً، بل قد يكون الطِّفل، وهو فـــي مرحلةٍ مبكِّرةٍ من عمره، مســـؤولاً عن إخوته الصِّغار، دون أدنى تأهيلٍ لهذه المســـؤوليَّة، وحينئذٍ لا وجه للحديـــث عن مرحلة شباب حقيقيَّة لمثل أولئك الذين يعيشون في مجتمع مُهَلْهَل. هذا بالإضافة إلى أنَّ الشَّـــباب أنفسهم همُ أكثر الفئات العمريَّة موتاً بمرض الإيدز.

د – العولمة: يبرز تأثير العولمة في جميع مناحي الحياة الإفريقيَّة؛ في كـــون إفريقيا الطَّرف الهدف في العولمة: في التِّجارة، والثَّقافة.. وغيرهما، ومن تأثيرات هذا النِّظـــام في إحداث التَّغيير في مفهوم «الشَّـــباب»: ما نشـــهده من إملاءاتٍ المؤسَّســـات الإمبرياليَّـــة على الدُّول، مثل صندوق النَّقد الدُّولي، ومنظَّمـــة يونيســـفْ، وإجبارهـــا الحكومـــات على سياســـاتٍ اقتصاديَّة واجتماعيَّة تؤثِّرُ مباشرةً وسلباً على حياة الملايين من الأفارقة، وتؤدِّي إلى مســـخ المفهوم الحقيقيِّ لمرحلة «الشَّباب».

خاتمة:

لقد كانت الفقرات السَّابقة محاولةً لاستكشاف مفهوم «الشـــباب» بإفريقيا التقليدية، وما طرأ على هذا المفهوم مـــن تطوُّرٍ وتغيير، فـــي هذا الإطار: وُجِد أنَّ اعتمـــاد «المعيار الزَّمني» وحدَهُ في تحديد «الشباب»، كما المعمول به في الدُّول الإفريقيَّة وفي العالَم، يفضي إلى إشـــكالاتٍ كثيرة، كما أنَّ اعتماد المعاييـــر الأجنبيَّة في هذا التَّحديد يوسِّـــع نطاق الإشكال، فتحديد «الشَّـــاب» بمن بلغ الثامنة عشرة من العمر، كما الحال في معظـــم البلاد الإفريقيَّة، معيارٌ مُســـتَوْرَدٌ مـــن القوانين الغربيَّـــة، والحال أنَّ معظم المجتمعـــات الإفريقيَّة التَّقليديَّة تجعل البلوغ (puberty) فاصلاً بين الطُّفولة والرُّشد، والرُّشد هنا له درجاتٌ محـــدَّدة واضحة بخلاف الحال في القوانين الغربيَّة التي تعامل– تقريباً– مَن بلغ الثَّامنة عشرة معاملة مَن في الثَّمانين من العمر: في الحقوق والواجبات المدنيَّة.

وكمـــا ألمح إليه الباحث مزروعـــي؛ فإنَّ اللُّغات الإفريقيَّة «تضع فاصلاً بين الرَّاشدين الشَّباب، وبين الشَّـــباب ذوي القدرات الحربيَّة في حماية المواشي والأراضي، وبين مَنْ فوق أولئك من كبار السِّن»[١].

أيضاً؛ وُجِـــد أنَّ المجتمعات الإفريقيَّة القديمة تســـتقي رؤيتها عـــن مرحلة «الشَّـــباب» من خلال فلســـفتها الخاصَّـــة ورؤيتها عن الكون والإنســـان والحياة، ومفهوم «الشَّـــباب» في ظلِّ هذه الفلســـفة شموليٌّ موسَّـــع: جسمي، نفسيّ، اجتماعي، ثقافي.. إلخ.

هذا، ولا شـــكَّ بـــأنَّ نظرةً كليَّـــةً جامعةً بين الأصيـــل والحديث فـــي مفهوم «الشَّـــباب»؛ هي المخرج الأسلَمُ من الإشكالات التي تجلبها النَّظرة الأحاديَّة المستَوْرَدة في هذا السِّياق، وقد تمَّ تعداد بعـــض المؤثِّرات الحديثة التي لا بدَّ من الاعتراف بهـــا من أجل وضع مفهوم الشَّـــباب في ســـياقه الصَّحيح، ولا يخفـــى أنَّ التَّحديد الدَّقيق لمفهوم «الشَّـــباب» له تأثيرٌ مباشرٌ في حسن إدارة الدَّولة وتســـيير شـــؤونها واتِّخاذ قراراتها؛ لأنَّ تصنيف المجتمع إلـــى فئاتٍ دقيقة خطـــوةٌ ضروريَّة لكلِّ برنامج إنمائيٍّ بالدَّولة الإفريقيَّة الحديثة[٢]، وهذا التَّحديـــد الدَّقيق لا يتمُّ إلاَّ بالاعتراف بالسِّـــياق التَّاريخـــيِّ الذي نعيـــش فيه؛ بجميـــع مظاهره السِّياسيَّة والثَّقافيَّة والاجتماعيَّة[٣] ■

(١) Mazrui, Ali al-Amin, The Warrior Tradition in Modern Africa, p.75.

(٢) Deborah, Durham. Youth and the Social, p.114.

(٣) Paul, Ugor L., African Youth Cultures, Op. Cit.